إبراهيم (ع) ومحنة الو َلد



تحكي كتب التفسير أنَّ إبراهيم (ع) قرر الهجرة إلى ربه بعد أن أراد قومه له الهلاك في الجحيم، ونجاه ا□ من كيدهم أجمعين. وقد أثبت القرآن الكريم هذه الهجرة في قول ا□ تعالى: (و َقَالَ إِن ِّي ذَاه ِبُ إِل َى ر َب ِّي سَيهَ ه ْد ِين ِ) (الصافات/ 99). يقول صاحب الظلال – رحمه ا□ –: "إنّها الهجرة، وهي هجرة نفسية قبل أن تكون هجرة مكانية.. هجرة يترك فيها كل شيء من ماضي حياته، يترك أباه وقومه وأهله وبيته ووطنه، وكل ما يربطه بهذه الأرض وبهؤلاء الناس، طارحا ً وراءه كل شيء، مسلَّما ً نفسه لربه، موقنا ً أنَّ ربه سيهديه، وسيرعى خطاه". وعندما قرر إبراهيم (ع) الهجرة لم يكن قد رُزق الولد، وهو الآن يترك خـَلـ°فـَه كـُلِّ َ أقاربه وقومه، فإتجه إلى ربه يسأله الذرية المؤمنة الصالحة، فتوجَّه إلى ربه متضرعاً: (رَبِّ هَبُ لِي مِنَ الصَّاَل ِحِينَ) (الصافات/ 100). واستجاب ا□ دعاء نبيه وعبده إبراهيم (ع): (فَبَشَّر ْنَاه ُ بِغُلامٍ حَلَيمٍ) (الصافات/ 101). المحنة محنتان: إنّ محنة إبراهيم (ع) في الولد محنتان؛ المحنة الأولى تجسّدت في صبره على عدم الإنجاب إلى أن صار شيخا ً كبيرا ً؛ فكان صابرا ً راضيا ً، والمحنة الثانية تمثلت فيما رآه وهو نائم — ورؤيا الأنبياء حقّ وصدق — حيث رأى أنّه يذبح ولده الحليم الذي ر ُزق به على كبر!! إجابة الدعاء ورزق الولد: والآن.. لقد استجاب له ربَّه، ورزقه غلاما ً حليما ً هو إسماعيل (ع)، ولكنه لم يكد يأنس بابنه وفلذة كبده وسنده، حتى ابتلي فيه، وذلك بعد أن تفتّح صباه، وبلغ معه السعي، لقد رأى إبراهيم - الشيخ النبي المقطوع من

القوم والعشيرة - في منامه أنَّه يذبح إسماعيل، ولقد أدرك إبراهيم رسالة ربَّه هذه.. إنها إشارة من ربه بالتضحية.. نعم، إنها إشارة ولكنها من ربه، فلبِّي واستجاب دون شك ولا تردد، بل أقدم على تنفيذ إشارة ربه طاعة له وتسليما ً وإذعانا ً وانقيادا ً، وهو راضٍ مستسلم، لم يعترض، ولم يخطر بباله - مجرد خاطر - أن يسأل ربه: لماذا يا ربي أذبح ابني الوحيد فلذة كبدي؟! لم يـُلبِّ إبراهيم (ع) في انزعاج، ولم يـُطرِع° في اضطراب، بل إنَّه الرضا والقبول في طمأنينة وهدوء. مفاتحة الأب وإذعان الابن: هذا الجو الذي يملؤه الرضا والتسليم والسكون يساعد إبراهيم (ع) - بعون ا□ تعالى له - على أن يفاتح ولده وفلذة كبده، قائلاً في هدوء: (.. يـَا بـُنـَيِّ َ إِـن ِ سِي أَر َى فـِي الـ ْمـَنـَام ِ أَن ِ سِي أَذ ْبـَحـُكَ فَ انْظُرْ مَاذَ َا تَرَى...) (الصافات/ 102). إنَّ الإبتلاء شديد، لا يصبر عليه إلا مؤمن عظيم الإيمان.. إن ّ ا□ عز ّ وجل ّ لم يأمر إبراهيم (ع) بأن يضحي بماله أو بيته، ولم يأمره بأن يرسل ولده ليقاتل في سبيل ا□، حيث الإبتلاء بلقاء الأعداء، الذي له احتمالان: إما النصر والنجاة من إيذاء الأعداء، وإما الشهادة، إنما يأمره أن يتولى هو بيده ذبح ابنه!! فماذا كانت إجابة ولده؟ (قـَال َ يـَا أَ بـَت ِ افْعـَل ْ مـَا تـُؤ ْمـَر ُ سـَتـَجـِد ُنـِي إِـن ْ شَاءَ اللَّهُ مَرِنَ الصَّابِرِينَ) (الصافات/ 102). إنَّه يسمو كما سما أبوه وارتقى، فتلقِّي الأمر في طاعة واستسلام ورضا وأدب، يدل على ذلك مخاطبته لأبيه بقوله: "يا أبت"، فهو نداء يوحي بالمودة والقربى والتقدير والتوقير، إنَّه يصبر ويصمد، فلا يفزعه شبح الذبح، ولم يفقده رشده، ولا حبه 🏾 ثمٌّ لأبيه، ويظل محافظا ً على هدوئه وأدبه مع أبيه. لم يأخذ إسماعيل (ع) الأمر على أنَّه بطولة أو حماسة أو شجاعة، ولم يبرز لذاته حجما ً ولا وزنا ً، ولم يأخذها اندفاعا ً دون روية ودون ربط الأمر بمشيئة ا[تعالى وعونه، ولم ينسب الفضل في الطاعة والصبر إلى نفسه بل قال: (سَتَجِدُنْنِي إِنْ شَاءَ اللَّيَهُ مِنَ الصَّابِرِينَ)، تنفيذ الذبح وإتيان الفَرَج: وفي خطوة أخرى هي خطوة التنفيذ يتجلي نبل الطاعة، وتتجلى قوة الإيمان، وعظمة الرضا، قال تعالى: (فَلَامَّاَ أُسَّلَمَا وَتَلَّهُ ل ِلاْج َب ِين ِ * و َن َاد َ ي ْن َاه ُ أَ ن ْ ي َا إِ ب ْر َاه ِيم ُ * ق َد ْ ص َد ۗ َق ْت َ الر ۗ وُ ْي َا إِ نَّ َا كَذَلَلِكَ نَجْزِي الْمُحُسْنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهَ وَ الْبَلَاءُ الْمُبَينُ * وَ فَدَ يَعْنَاهُ مِنْ مِ عَظِيمٍ * و َ تَر َكَعْنَا عَلَيهُ مِ فِي الآخِرِينَ * سَلامٌ عَلَي إِ ب°ر َ اهِ يم َ * كَنْ َل ِكَ نَج ْزِي ال ْمُح ْسينين َ * إِنَّهُ مين ْ عِبَادِ نَا الـْمُوْ مينيِينَ) (الصافات/ 111-103). "لقد أسلما" وتلك حقيقة الإسلام، ثقة وطاعة وتسليم وطمأنينة ورضا وتنفيذ، يقول سيد قطب — رحمه ا□ — في الظلال: "إنها ليست الشجاعة والجرأة، وليس الاندفاع والحماسة، لقد يندفع المجاهد في الميدان، يَقْتَل ويُقْتَل.. ولقد يندفع الفدائي وهو يعلم أنَّه ربما لا يعود، ولكن هذا كله شيء والذي يصنعه إبراهيم

وإسماعيل هنا شيئا ً آخر.. ليس هنا دم فائر، ولا حماسة دافعة، ولا اندفاع في عجلة تخفي وراءها الخوف من الضعف والنكوص!! إنما هو الإستسلام الواعبي المتعقل القاصد المريد، العارف بما يفعل، المطمئن لما يكون، لا بل هنا الرضا الهادئ المستبشر المتذوق للطاعة وطعمها الجميل!! بذلك يكون إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- قد نفَّذا الأمر والتكليف، ولم يعد باقيا ً إلا أن يذبح إبراهيم (ع) ولده؛ لأن ّ إبراهيم قد جه ّز السكين وأخذ ولده وأكبُّه على جبينه استعدادا ً لوضع السكين على عنقه وذبحه، كما أنَّ الغلام إسماعيل (ع) لم يتحرك امتناعا ً ولا خوفا ً، في موقف حقيقي تنفيذي، عيانا ً بعد أن كان كلاما ً ووعودا ً!! وضع إبراهيم (ع) السكين على عنق ولده، ولم يبق َ إلا أن يذبحه ويريق دمه ويزهق روحه، ولكن ا∐ تعالى لا يرضى تعذيب عبده: (مَا يَفْعَلُ اللَّهَ ُ بِعَذَابِكُمْ) (النساء/ 147)، إنَّما القصد هو الاختبار، وقد اختبر الوالد والولد، فصبرا ونجحا في الاختبار، فلم يعد 🛘 حاجة في التفريق بين الوالد والولد بهذا الذبح، لذا كان تفريج الكرب، وإزالة الهم والغم، وزوال الشدة، وحدوث الفرج، وتحصيل الجائزة. كان الامتحان - إذن - قد تم، وظهرت نتائجه، وقد اجتازه إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- بنجاح، وظهر صدقهما، فاعتبرهما ا□ تعالى قد أديا وصدقا ونجحا وصبرا وثبتا، لذا جاء الفرج الإلهي من فوق السماوات السبع: (و َناد َي ْنَاه ُ أَن ْ يَا إِ بـْر َاه َيم ُ * قَد ْ صَدَّ َق ْتَ الرِّ وُ ْيَا إِ نِّ َا كَذَلَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) (الصافات/ 105-104)، أي حقّ َقت الرؤيا يا إبراهيم بالفعل، فا□ لا يريد إلا الإسلام والاستسلام، بحيث لا يبقى في النفس ما تبخل به على خالقها وبارئها، ولو كان الإبن الوحيد فلذة الكبد وروح الفؤاد. لقد جُدت َ يا إبراهيم بكل شيء وبأعز شيء، ج ُدت به في رضا، ولم يبق إلا الدم واللحم، وهذا ينوب عنه ذبح، أي ذبح من دم ولحم، وبذلك يفدي ا□ عز ّ وجل ّ هذا الغلام الذي أسلم واستسلم ونفّذ بصدق، ففداه ا∐ بكبش و َج َد َه إبراهيم (ع) م ُهي ّأ بإراده ربه وقدرته، ليذبحه فداء لإسماعيل وبدلاً منه، لأنَّ ا□ لا يريد لعباده ألما ً نفسيا ً ولا بدنيا ً، وإنما أراد الابتلاء، ليصبّر عباده، فيوفيهم أجورهم. جزاء المحسنين الصابرين: لم يكن الفرج في فداء إسماعيل فقط بكبش ذبح بدلاً منه، بل أجزل له ربه العطاء والجائزة والمكافأة لإحسانه: (إِنَّا كَـذَـلـِكَ نـَجـْزِي الـْمـُحـْسـِنـيِن َ) (الصافات/ 80)، جزاهم لصبرهم على البلاء، جزاهم بترقية نفوسهم، وتزكيتها، وملئها بالرضا والإيمان، وبتخليد هذه الذكرى وصاحبيها إبراهيم الوالد وإسماعيل الولد -عليهما السلام-. دروس تربوية: في قصة ابتلاء إبراهيم في ولده إسماعيل (ع) دروس للأ ُمَّة وللناس قاطبة، على مرِّ العصور والأجيال، ومن أهم هذه الدروس: أو ّلا ً: أن ّ ا□ عز ّ وجل ّ يبتلي أنبياءه وعباده الصالحين الذين يحبهم، فيعر ّضهم للمحن ليس بغرض الانتقام والتعذيب، وإنما بغرض الابتلاء والتدريب، والتربية والترقية، وتحصيل

الثواب، وزيادة الحسنات، وبلوغ الجنات، ورفع الدرجات. ثانياً: وجوب انقياد العباد لخالقهم طاعة واستسلاما ً وتسليما ً ويقينا ً ورضا، وإن كان في ظاهر ذلك ألما ً نفسيا ً أو جسدياً. ثالثاً: كلِّ حب يجب أن يأتي بعد حبِّ ا□ تعالى، فحبِّ العبد لربه يجب أن يُقدم على حبِّ أي شيء سواه، يجب أن يأتي بعد حبِّ ا[تعالى حبِّ الولد والنفس والمال والأهل الدنيا والناس أجمعين، هكذا فعل إبراهيم (ع)، حيث قدّم حبّ ربه على كل حب، حتى لو أدى الأمر إلى ذبح ابنه حبيب قلبه، وإلى ذلك يوجهنا القرآن الكريم: (قُلُ ْ إِن ْ كَانَ َ آباَؤُكُمْ وَأَبِدْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانكُمْ وَأَزُوْوَاجُكُمْ وَأَزَوْوَاجِكُمْ وَعَشِيرَتكُكُمْ وَ أَ مَوْ ال ٌ اقْ تَرَ فْ تَ مُوهَ ا و َ تِجَارِ ةَ ْ تَخْ شُووْنَ كَ سَادَهَ ا و َ مَ سَاكَ ِن ُ تَر ْضَو ْنَهَا أَحَبَّ إِلَي ْكُمُ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجَهَادٍ فِي سَبيلِهِ فَتَرَبَّ صُوا حَتَّى يَأُ ثَرِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهِ دُرِي الْقَوهُمَ الـ ْهْ َاسِيَةِ بِن َ) (التوبة/ 24). فهل يعقل المسلمون - وخاصة الدعاة - هذا الأمر؟ إنّ من الدعاة من يظن أنَّه سيبلغ الجنة وينال رضوان ا□ تعالى دون أن يبذل ويضحي، ودون أن يجاهد بكلمة حقٌّ، وربما يحيد عن الحقٌّ مخافة الناس، وا□ أحق أن يخشاه!! رابعاءً: ضرورة الاهتمام بإحسان تربية الأولاد، فلقد ربي إبراهيم ولده إسماعيل (ع) وأحسن تربيته، لذا كانت الثمرة الطاعة والانقياد، والأجر والثواب. أين الآباء من واجباتهم التربوية نحو أبنائهم، وقد أسلموا أولادهم للتلفاز والفضائيات ودور السينما والإنترنت، وعزفوا عن تربيتهم على الإسلام وقيمه وأخلاقياته؟ خامساً: لجوء مـَن° حرم نعمة الولد إلى الدعاء وتضرعهم إلى ا□، وألا يكون دعاؤهم مقصورا ً على طلب أي أولاد، وإنما يلحون في الدعاء بأن يرزقهم ا□ الذرية الصالحة، ذلك ما نتعلمه من دعوة إبراهيم (ع): (رَبِّ هَبْ لَيِي مِنَ الصَّال ِح ِين َ)، لأنَّ الذرية إن لم تكن صالحة أزعجت الوالدين، وكانت مصدر شقاء لهما وإزعاج، وذلك قد يؤدي إلى سقوطهما في أضعف الابتلاءات، بل وسقوط الجميع في أعين الناس!! ذلك أنَّ حب الوالد لولده فطري، وربَّما جعله ذلك يتهاون مع ابنه في كثير من الأمور التربوية، ومن ثم يكون الولد مصدر إرهاق وطغيان، وربَّما الضرر والعياذ با□، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: (و َأ َمَّ َا الـ ْغُلُام ُ ف َكَانَ أَ بَوَاه ُ مُؤ ْم ِن َي ْن ِ فَخَسْ ِينَا أَن ْ يُر ْه ِقَه ُماَ طُغ ْيانًا و َكُفْرًا * فَأَرَد ْنَا أَن ْ يُبْد ِلهَ مُا رَبٌّ هُمُا خَيْرًا م ِنهُ زَكَاةً وَأَقَرْبَ رُحْمًا) (الكهف/ 81-80). سادسا ً: التأسي بإبراهيم (ع) وغيره من الأنبياء والصالحين الصابرين، قال تعالى: (قَـد° كَانَت ْ لَكُمْ ۚ أُسْوَة ۗ حَسَنَة ۗ في إِبْرَاهِيم َ وَالَّنذِينَ مَعَه ُ...) (الممتحنة/ 4). سابعاً: من عاش □ كان في معيته ورعايته، فقد استقرت هذه العقيدة في قلب إبراهيم (ع)، وتمكِّنت، فوجدناه صابراً على المحن، ومن ثمٌّ يسَّر ا□ له من الأسباب ما لم يخطر

على باله، فهل كان يتوقع إبراهيم (ع) أنّ ا] سيفدي ابنه بكبش عظيم بعد أنّ وضع السكين على عنقه؟!! ثامناً: رقة خطاب الأب مع ابنه، والهدوء أثناء تحاور الأب مع أبنائه، مهما عظم موضوع الحوار، ولنتدبر قول إبراهيم لإسماعيل -عليهما السلام-: "يا بـُني"، وهو نداء يشعل حباً ومودة وهدوءاً برغم أنّ العنوان الرئيس: "دبح الأب لابنه"!! تاسعاً: النتيجة المنطقية لرقة خطاب الأب مع ابنه حـُسن أدب الابن مع أبيه ورقة خطابه معه أيضاً، فلقد كان رد إسماعيل على إبراهيم (ع): (يـَا أَـبـَت ِ اوْعـَلُ ماً تـُوْهُ مـَر ُ)، ففي ندائه لأبيه بـ"يا أبت" المودة والقربي والطاعة والأدب. فهل انتهى الآباء عن الصراخ في وجوه أبنائهم وممارسة العنف والقسوة، وإغلاق الحوار؟! عاشراً: جزاء الصبر جزاءات، فقد أثمر صبر الوالد إبراهيم وولده إسماعيل -عليهما السلام- جزاءات وثمرات، فقد خلدت الذكري، لتتعلم الأمة دروساً عظيمة في الصبر وواجبات الأبوة وحقوق الأولاد، والفداء والتضحية، ولك أن تتصور فقط ذلك الخير العائد على البشرية من الأضحية التي صارت سنة للمسلم القادر على عبد الأضحى، تخليداً لهذه الذكرى العطرة، وكم من المسلمين الفقراء والأغنياء على السواء يستفيدون منها، وتلك ثمرة فرعية واحدة لثمرة أصلية هي الأضعية!! * أستاذ المناهج